السلوانة الثـــانيـة

سلوانة التأسى

أنزل الله ربنا تقدس اسمه من السورة المذكور فيها الأحزاب آيات معجزات طبقن المفصل المقصود بهذا الكتاب وهو تأسى الملوك فى طوام العوام[1] ، والله ربنا المحمود على الهداية إليها ، والدلالة عليها ، وذلك قوله سبحانه فى المتألبين[2] على خليفته فى أرضه ، الداعى إلى مندوبه وفرضه ، صلى الله عليه وسلم ﴿إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[3] [الأحزاب : ١٠] .

وقوله ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب : ١١] .

وقوله فى تردد من ضعفت بصيرته حينئذ ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾[الأحزاب:١٠]

وقوله فى نجوم النفاق وجرأة أهله على إظهار ما كانوا يسترونه حين رأوا أن المؤمنين قد ابتلوا وزلزلوا زلزالا شديدا ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الأحزاب : ١٢] .

وقوله فى القاعدين عن نصرة الحق المخذلين من أراد نصره ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب :١٨] وقوله فيهم ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب : ١٣] .

وقوله فى المتسللين لواذاً ﴿وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ [الأحزاب :١٣] .

وقوله فى تجار أسواق الفتن الذين يتبعون كل ساع ، ويستجيبون لكل داع ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا﴾ [الأحزاب:١٤] .

وقوله فى تعجيز الفرار عن مغالبة القدر ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ [الأحزاب :١٦] .

---

(١) أى حسن أخلاق العوام .

(٢) نستألبون : مفردها المتألب وهم المحرضون المعاندون .

(٣) انظر تفسير سورة الأحزاب فى الدر المنثور للسيوطى (٣٤٦/٥) .

والتى بعدها ، وهو قوله سبحانه ﴿قُلْ مَنْ ذَا الّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إن أرَادَ بِكُمْ سُوْءاً أوْ أرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب :١٧] .

فهذه جمل طوام العوام والامتحان بها ، ثم إن الله سبحانه دل من امتحن بها على ما أدب به رسوله ﷺ بقوله ﴿لَقدْ كَانَ لَكُمْ فِىْ رَسُوْلِ اللهِ أسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب :٢١] .

ومما أدب الله به رسوله عليه السلام ، التأسى ، قال عز من قائل ﴿وَلَقَدْ كُذبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَروا عَلَى مَا كُذِبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام :٣٤] .

ثم عرف الله رسوله عليه السلام أن إضاعة التأسى وترك العمل به لا يجلب إليه حظا فقال ﴿وَإنْ كَانَ كَبُر عَلَيْكَ إعْرَاضُهُمْ فَإنْ اسْتَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِى نَفَقَاً فِى الأرْضِ أوْ سُلَّماً فِىْ السَمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ﴾ [الأنعام :٣٥] .

واعلم أن التأسى بهم مفترض عليه بقوله ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُسُلِ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِيْنَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدَهْ﴾ [الأنعام :٩٠] فهذا أمر جزم.

وروى أن رسول الله ﷺ قال : «إنَّ الله أدَّبَنِى فَأحْسَنَ أدَبِى»[1] .

فالتأسى مما أدب الله به رسوله بل مما افترضه عليه كما بيَّنا ، ومعنى التأسى عند الأئمة أن تنظر إلى أسى غيرك ، أى حزنه ، وأنه مثل أسَاك ، أى مثل حزنك، فتصبر . والأسى : هو الحزن ، ولا يعجبنى هذا ، وهو عندى مأخوذ من قولهم : أسوت الجرح والجريح ، أى داويت ، والآسى : هو الطبيب المداوى ، فكان معنى التأسى : التطبب والتداوى بالصبر ، والأسوة : اسم من هذا ، والتأسى : تَفَعّلٌ من الأسوة ، ولو كان على ما ذهبوا إليه لكان معنى التأسى ، التحزن تقول : أسيت ، أى حزنت ، وتأسيت أى تحزنت .

---

(١) أورده المناوى فى الفيض (٢٢٤/١) عن ابن مسعود وقال : إسناده ضعيف ، وقال السخاوى : ضعيف ، وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٣١٨٩٥) وعزاه لابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود رضي الله عنه .

خبر نبوى فى التأسى

مما رويناه أن النبى ﷺ قال : «**انْظُرُواْ إِلَى مَن أَسْفَلَ مِنْكُمْ ولاَ تَنْظُرُواْ إِلَى مَنْ فَوْقَكُمْ ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَلاَّ تَزْدَرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم**»(١).

قال محمد عفا الله عنه : إن هذا الحديث لحسن الموقع مما نحن فيه ، ولا ينبغى أن يقصر لفظه عن إطلاق مفهومه وموجب عمومه ، والذى يوجب عمومه : أنه أمر لمن كان فى نعمة دقيقة بأن ينظر إلى من هو فى نعمة أدق منها ، وأمر لمن كان فى بلاء بأن ينظر إلى من هو أشد من بلائه ، فإنه دونه وأسفل منه فى حظ المعاناة المطلوبة ، وهذا المخفف عنه حظه أوفر وأعلى قدرا لنعمة منعم عليه ، ومحسن إليه بما يفوق ما أنعم به على غيره ، وذو البلاء منعم عليه بنقص بلائه عن بلاء غيره ومعافاته من الابتلاء بتلك الزيادة التى ابتلى بها غيره ، وإنما كان هذا الخبر بليغا فى باب التأسى ؛ لأنه ينقل مستعظم البلاء الذى نزل به إلى أن يستصغره بإضافته إلى ما ابتلى به غيره ، ويخصه على ما فضله به من حظ العافية التى فضل بها على غيره ، وهذه درجة أعلى من درجة التأسى المطلق لأن التأسى المطلق لا يفيد حضا على شكر ، ولا يصور النقمة المخففة فى صورة النعمة ، وإنما يثمر الصبر خاصة ، وهذا الحديث يثمر الصبر ثم الشكر .

أسجاع وأبيات حكمية فى التأسى

التأسى جنة البلاء ، وسنة النبلاء درج الاصطبار(٢) ، كما أن الجزع درك التبار(٣) ، وإنه ينبغى لذى البصيرة أن يرى النعم فى صورة العوارى المرتجعة(٤) ، والودائع المنتزعة ، فمتى لم يفعل ذلك أعظم فقدها ، وجور المنعم إذا استردها ، كما ينبغى له الايذهل عن حظوظ جنسه منها ودولتهم فيها

---

(١) أخرجه الإمام مسلم : كتاب الزهد والرقائق (٩) عن أبى هريرة . وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٦٤٢٤) وعزاه للبيهقى عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٢) درج الاصطبار : مسلكه وطرقه .

(٣) الهلاك .

(٤) العوارى ، مفردها العارية : وهو ما تعطيه غيرك على شرط أن يعيده لك .

، فإذا زالت عنه وصارت إليهم لم ينكر منهم أخذهم أنصباءهم[1] وتقاضيهم حظوظهم ، وليتأس بصبرهم عند حوزه[2] لها دونهم فيصبر لدولتهم الخالفة ، كما صبروا لدولته السالفة ؛ لأن صدقة المتصدقين وإقراض المقرضين وضيافة المضيفين ، وما يلتحق بذلك من ضروب المواساة فى المال وفى القوة وفى الجاه إنما ندب إليه المواسون فيه ليستبقوا النعم بإعطاء الجنس حظوظهم منها ، وفى هذه الجملة الحكيمة لمن تدبرها قَنَعَان . والله المستعان .

أنشد فى بعض الملوك لنفسه فى حال شديدة نزلت به :

نَحْنُ مَنْ قَدْ عَلِمْتَ بَطْشا وعِلْماً   ولَنَا المحتد الأغر الأعزُّ[3]
ولنا أَنْفُسٌ عوارفُ بالدهر   تَأَسَّى حين الأَسَى يُسْتَعَزُّ[4]

وحضرت عنده فى يوم من أيام شِدَّته ، فأنشدنى لنفسه :

قَرَّبَنِى دَهْرى فَلَمْ يَلْقَنِى   أطْمَعُ فى تَأْبِيدِ تَقْرِيبِهِ
ثُمَّ نَبَا عَنِّى فَلَمْ يَلْقَنِى   أَجْزَعُ مِنْ إصْنَاتِ تعذيبه[5]

والحمد لله على حكمه

ثم قال لى : أجز ، فقلت : فقوتى منه وحولى به

وقال لى يوما وقد حادثته بما يبعثه على التأسى : أنشدنى فى ذلك شعرا ، فأنشدته للخنساء :

ألا يا صَخْرُ لا أنسَاكَ حتى   أُفارقَ عيشَتِى وأَزُورَ رَمْسِى[6]
ولَوْلاَ كَثْرَةُ الباكِينَ حَوْلِى   عَلَى أَخْبَابهم لَقَتَلْتُ نَفْسِى
ومَا يَبْكُونَ مِثْلَ أخى ولَكِن   أُعَزِّى النفسَ عنه بالتَّأَسِّى

فقال لى : هذا أخلق من طيلسان بن حرب ، اسمع ، وأنشدنى لنفسه :

---

(١) الحصة من الشىء أى أنصبتهم .
(٢) أى عند حصوله عليها .
(٣) المحتد : الأصل والنسب .
(٤) عوارف ، مفردها عارفة : وهو العالم بالشىء .
(٥) نبا عَنِّى : أعرض عنى . إصنات تعذيبه : أى إحكام وشدة تعذيبه .
(٦) رمسى : قبرى .

نَفِيضُ كَمَا يَفِيضُ النِّيلُ جُوداً ... ونُقْدِمُ مِثْلَ إقْدَامِ الحُسَامِ[1]
وإنْ نَزَلَتْ بِنَا كُبْرُ الرَّزَايَا ... تَأَسَّيْنَا بِأَمْلَاكٍ كِرَامِ[2]

روضة رائقة ، ورياضة فائقة

قيل لما عزم سابور بن هرمز[3] على الدخول إلى بلاد الروم متنكرا متحسسا نهاه نصحاؤه وحذروه التغرير بنفسه فى أمر يمكنه أن يستتيب فيه فعصاهم .

وكان يقال : أشقى الناس وزراء الأحداث من الملوك ، وعشاق القينات[4] من الشيوخ .

وكان يقال : إنما عسر صرف الأحداث عن غى الهوى إلى رشد الرأى لأمرين؛ أحدهما : قوة سلطان الشهوات عليهم ، والثانى : أن التجارب لم ترض عقولهم على مخالفة هواهم ، وذو الحنكة[5] بخلاف ذلك .

ثم إن سابور توجه نحو بلاد الروم واستصحب وزيراً كان له ولأبيه من قبله، وكان شيخا ذا دهاء وحزم وسداد رأى وحنكة ، وبصر بالديانات واللغات ، وتبحر فى العلوم وخبرة بالمكايد ، فسلم إليه سابور جميع ما يظن أن به إليه حاجة أو تدعوه إليه داعية ، وأمره أن ينحاز عنه فى قرب منه ومراعاة لجميع أحواله فى ليله ونهاره ، وتوجها معا نحو الشام[6] ، فتزيا ذلك الوزير بزى الرهبان وتكلم بلسان الجلالقة[7] ، وتحرف بصناعة الطب الجراحى ، وكان معه

---

(١) الحسام : السيف القاطع .
(٢) الرزايا : مفردها الرزيئة وهى المصيبة .
(٣) سابور بن هرمز : ملك فارسى لقب بذى الأكتاف وحمى الديانة المزدية واعتناقها . مفاتيح العلوم (٦٥) .
(٤) القينات ، مفردها قينة : وهى الأمة المغنية الجميلة .
(٥) أى الحكيم والخبير .
(٦) الشام : وقيل الشأم ، وسميت بذلك لكثرة قراها ، وتدانى بعضها من بعض فشبهت بالشامات . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((الشام صفوة الله من بلاده ..)) . الحديث . معجم البلدان (٦٩٤٦) .
(٧) الجلالقة : من ولد يافث بن نوح عليه السلام وهو الأصغر من ولد نوح ، وبلدهم جليقية، الروض المعطار (١٦٩) معجم البلدان (٣٢٠٥) .

الدهن الصينى الذى إذا دهنت به الجراحات برئت واندملت فى الحال .

قال محمد عفا الله عنه : قد رأيت جماعة ذكروا أنهم رأوا هذا الدهن المذكور وحدثنى بعضهم أنه امتحنه بأن شرح اللحم ودهنه منه فالتأم مكانه ، فكان ذلك الوزير فى مسيره نحو بلاد الروم وبعد ما دخلها ، يداوى الجرحى بأدوية يضيف إليها شيئا يسيرا من ذلك الدهن فتبرأ جراحهم بسرعة ، فإذا عنى بواحد من ذوى الأقدار داواه بذلك الدهن صرفا فيبرأ مكانه ولا يأخذ على المداواة أجرا ، فأنشر له فى البلاد ود وصيت بالعلم والزهد .

وكان يقال : من غرس العلم اجتنى النباهة ، ومن غرس الزهد اجتنى المحبة، ومن غرس الوقار اجتنى المهابة ، ومن غرس المداراة[١] اجتنى السلامة، ومن غرس الكبر اجتنى المقت[٢] ، ومن غرس الحرص اجتنى الذل ، ومن غرس الطمع اجتنى الخزى ، ومن غرس الحسد اجتنى الكمد[٣] .

وكان يقال : الأمم على اختلاف أديانها وأزمانها وبلدانها متفقة على حمد أخلاق أربعة : العلم ، والزهد ، والإحسان والأمانة .

قيل : فانطلق سابور ووزيره منفردين إلا الوزير يراعى أحوال سابور أشد المراعاة ، فلم يزالا على ذلك حتى طوفا جميع الشام ، وتجاوزا الدروب وقصدا القسطنطينية[٤] ، فقدماها ، فذهب الوزير إلى البطرك ـ وتفسير هذا الاسم ، أبو الآباء ـ فاستأذن عليه فأذن له وسأله عما يريد فأخبره أنه هاجر من أرض الجلالقة ليتشرف بخدمته ويدخل فى أتباعه ، وأهدى إليه هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك ، فقربه وأكرمه وأحسن نزله وألحقه ببطانته ، واختبره فوجده لبيباً فأعجبه غاية الإعجاب وجعل الوزير يتأمل أخلاق البطرك ليصحبه بما يوافقه ويتفق عنده ويحسن موقعه منه .

---

(١) الحيلة والنفاق .

(٢) البغض والكراهية .

(٣) الحزن الشديد والهم .

(٤) القسطنطينية : مدينة عاصمة بيزنطة القديمة أو الدولة الرومانية الشرقية . بناها قسطنطين الأول وجعلها مقر حكمه . معجم البلدان (٩٦١٣) .

وكان يقال : إذا أردت صحبة رئيس ، فانظر ما يستميله ويتفق عنده من الآلات فإن كنت مطيقا للعمل بها فى طلب إقباله عليك وحظوتك عنده ، فاقدم عليه وإلا فَرُضَ نفسك على ذلك حتى تعلم أنها قد أطاقته وأحكمته فتقدم على بصيرة .

قيل : فلما تأمل وزير سابور أخلاق البطرك وجده مائلا إلى الفكاهات معجبا بنوادر الأخبار ، فأخذ الوزير فى إتحافه من ذلك بكل نادرة غريبة ، وملحة عجيبة، فلم تطل المدة به فى صحبته حتى حلا بعينه وقلبه ، وصار ألصق به من شعرات قصه[١] ، وجعل مع ذلك يعالج الجرحى ولا يأخذ على ذلك عوضا ، فعظم قدره فى الناس ، وومقته[٢] القلوب .

وكان يقال : إذا كانت القلوب مجبولة على مقة المحسنين كانت المحبة رقا، والأحرار يكرهون الاسترقاق ، فالحر على الحقيقة من فدى نفسه من رق المحسنين بمكافأتهم على إحسانهم جهده ، حتى إذا لم يستطع فليُرِقَّ نفسه لهم معذورا ، وجعل الوزير يتعهد أحوال سابور فى كل وقت إلى أن صنع قيصر وليمة حشر إليها الناس على طبقاتهم وتهدد من تخلف عنها ، فأراد سابور حضورها ليطلع على هيئة قصر قيصر وسمته وذخائره ، فنهاه وزيره عن التغرير بنفسه فعصاه ، وتزيا بزى ظن أنه يستر به أمره ، ودخل دار قيصر مع من حضر ، وكان قيصر لما بلغه ما أيد الله به سابور من لطف الفطنة ، وعظم الهمة ، وشدة البأس فى حال صباه حذره حذرا شديدا ، فبعث إلى حضرته بمصور ماهر ، فحكى صورة سابور فى مجلسه وحال ركوبه ، وغير ذلك من ضروب الأحوال التى شاهده المصور عليها ، وقدم بتلك الصور على قيصر ، فأمر قيصر بأن تصور تلك الصور على فرشه وستوره[٣] ، وفى آلات أكله وشربه ، فصنع ذلك على ما أمر به ورسمه[٤].

ولما دخل سابور دار قيصر واستقر فى مجلسه وطعم مع من حضر ذلك المجلس، أتوا بالشراب فى كؤوس البللور والفضة والزجاج المحكم ، وكان فى

---

(١) القص : عظم الصدر ، المراد : أى قريب إلى قلبه ونفسه .

(٢) أحبته وتوددت إليه .

(٣) الستور ، مفردها الستر : ما يستر به المرء عند نومه .

(٤) أى كتبه .

المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم ذو فراسة صادقة ، فلما وقعت عينه على سابور أنكره، وجعل يتأمل شخصه ونظرته فرأى عليه مخايل الرياسة ، فطفق يستشفه ولا يصرف بصره عنه ، فأتى ذلك المتفرس الرومى بكأس فيها صورة سابور ، فتأملها فانطبعت فى نفسه إبـ مثال لذلك الشخص الذى أنكره ، وغلب على ظنه أنه سابور فأمسك القدح فى يده إمساكا طويلا ، ثم قال رافعا صوته : إن هذه الصورة التى فى هذا القدح تخبرنى أمرا عجيبا ، فقال له : ما الذى تخبرك هذه الصورة ؟ قال : تخبرنى أنَّ الذى هى مثال له معنا فى مجلسنا هذا ، ونظر إلى سابور وقد تغير حين سمع مقالته فحقق ما ظنه به وأعاد القول، فبلغ كلامه قيصر فأدناه وسأله ، فأخبره أن سابور معه فى مجلسه ، وأشار إليه فأمر قيصر بالقبض على سابور ، فقبض عليه ، وقرب من قيصر فسأله عن نفسه فتعلل بضروب من العلل ، فقال ذلك المتفرس : لا تقبلوا عذره فهو سَابور لا محالة ، فأمر قيصر بقتله ليرعبه بذلك ، فاعترف لهم بأنه سابور

وكان يقال : قلوب الحكماء تستشف الأسرار من لمحات الأبصار ، وطالما دلت أوائل المبصرات على أواخر المنتظرات .

وقيل : كما أن الأبصار مرائى تنطبع فيها المشاهدات إذا سلمت من صدأ الآفات ، فكذلك العقول مرائى تنطبع فيها بعض الغايات إذا سلمت من صدأ الشهوات .

وقيل : من الأدلة على مكاشفة الله القلوب ببعض الغيوب أن الإنسان قد يتوقع الشىء يكرهه أو يحبه ، ثم يكون ذلك الشىء الذى يتوقع على نحو ما توقع منه ، فقد يرى الإنسان فيحبه لغير إحسان فرط منه إليه أو يبغضه لغير إساءة جناها عليه ، ثم يكون منه الإحسان أو الإساءة .

قيل : ولما اعترف سابور بصدق ذلك المتفرس حبسه قيصر مكرما ، وأمر فعملت له من جلود البقر صورة بقرة كأعظم ما يكون من البقر ، وطبقت عليها الجلود سبع طبقات ، واتُخذ لها باب من أعلاها فى ظهر الصورة يدخل إليها

ويخرج منه ، وجعلت فيها كوة[1] من أسفلها فى موضع المبال ، وأمر سابور فجمعت يداه إلى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة؛ ليمكنه معها تناول ما يصلحه من طعام وغيره ، وأدخل سابور فى جوف تلك الصورة وهذا بعد أن حشر قيصر جنوده واستعد لغزو بلاد الفرس ، ووكل بتلك الصورة التى سجن فيها سابور مائة رجل من ذوى الباس والقوة يحملونها دولا بينهم ، وجعل على كل خمسة منهم رئيسا يضبط أمرهم ، وصرف أمر جميعهم إلى المطران ــ ومعنى هذا اللقب صاحب البلد ، إلا أنها رئاسة دينية ، وهو خليفة البطرك ــ فإذا نزل العسكر أنزلت الصورة فى متوسط العسكر وضربت عليها قبة تسترها ، وأطاف بها خمسون من الموكلين بها ورؤساؤهم معهم ، وضربت حولها عشر قباب مستديرة بها ، فكان فى كل قبة خمسة ورئيسهم معهم ، وضربت للمطران قبة بمجاورة قبة سابور ، وضربت خارج القباب كلها خيمة يصنع فيها طعام الموكلين بقبة سابور على حسب أقدارهم ومراتبهم ، وسار قيصر محتفلا فى جنوده وقد عزم على إخراب بلاد الفرس وتعفية[2] معالم ملكهم لعلمه أن لا دافع يدفعه عنهم.

وكان يقال : الحزم التزام مداجاة[3] العدو مادامت لدولته ريح إقبال ، كما أن العجز إضاعة الفرصة فيه إذا أدبرت دولته وركدت ريح إقباله .

وكان يقال : العاقل لا يكون فى سلطان ملك اجتمعت فيه خصلتان : الانهماك فى اللذات ، وإضاعة الفرص .

وكان يقال : تميز الملوك عن السوقة إنما يكون بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات ، وفضيلة ذات الملك بخمس خصال : رحمة تشمل رعيته ، ويقظة تحوطهم، وصولة[4] تذب عنهم ، ولبابة[5] يكيد بها الأعداء ، وحزامة ينتهز بها الفرص ، فهذه فضيلة الذات .

---

(١) خرق أو ثقب .

(٢) محو وإزالة .

(٣) مداراة ومداهنة .

(٤) سطوة وقدرة .

(٥) عقل وحكمة .

وأما فضيلة الأدوات فباتخاذ المبانى الوثيقة العلية ، والملابس الأنيقة السرية[1] والذخائر النفيسة السنية ، والمطاعم الشهية والمراكب البهية ، فهذه فضيلة تفضل بها هذه الأدوات على ما دونها من أجناسها ، فيكون للقصر فضل على غيره من القصور ، وللثوب فضل على غيره من الثياب ، وللذخيرة فضل على غيرها من الذخائر ، وللطعام فضل على غيره من الأطعمة ، وللدابة فضل على غيرها من الدواب ؛ فالفضيلة لهذه الأشياء لا لمالكها .

قيل : فلما سار قيصر[2] بجنوده ومعه سابور على الهيئة التى ذكرناها ، قال وزير سابور للبطرق : إن مما استفدت بخدمتك والقرب منك الرغبة فى صالح الأعمال وإنه لا عمل أنفس من تنفيس كربة عن مجهود[3] ، وجر نفع إلى مضطر ، وقد علمت كفايتى فى معاناة الجرحى ، وإن نفسى لتنازعنى إلى صحبة الملك قيصر فى سفره هذا ، فلعل الله أن يستنقذ بى نفسا صالحة يترحم علىّ من أجلها ، ويقدس قلبى بخدمتها ويحفظنى لها ، فكره البطرك ذلك وقال له : قد علمت إنى لا أستطيع فراقك ساعة فكيف تطالبنى بالسفر البعيد عنى ، ما ظننت أنك تلقانى بما أكره ، وتسومنى ما يشق علىّ احتماله ، كما لم أكن أظن أنك تؤثر شيئا من الأشياء على القرب منى والتحبب إلى ، فقد أزلتنى عن حسن ظنى بك ، ولم يزل الوزير يضرع إلى البطرك ويتملقه[4] ويقرب له العود إلى أن سمح له بذلك ، فأذن له وزوده وكتب معه كتابا إلى المطران يخبره أنه قد بعث إليه سويداء قلبه وسواد بصره ، فلتحلله من نفسك بأعلى المراتب واستَضيىء برأيه فيما أشكل عليك ، فقدم وزير سابور على المطران فعرف له حقه وأنزله معه فى قبته ، وجعل زمام أمره ونهيه بيده ، وجعل الوزير يتنفق عند المطران بما يعجبه ويستميله بما يميل إليه ويطرفه كل ليلة

---

(١) أى الخالصة الجميلة .

(٢) قيصر : من كبار رجال الدولة والقواد فى روما . أعاد تنظيم الإدارة الرومانية . تآمرت عليه الطبقة الأرستقراطية فى مجلس الشيوخ فاغتيل . له تاريخ حرب الغال والحرب الأهلية. مفاتيح العلوم (٧٠) .

(٣) مكروب ذو محنة .

(٤) يتودد ويتلطف إليه .

بأخبار ممتعة ، رافعا بها صوته ليسمع سابور حديثه فيتسلى بذلك ويدس فى أحاديثه ما يحب أن يعلمه سابور من الأخبار ويفطنه له من الأسرار ، فكان سابور يجد لذلك أعظم راحة ، وكان الوزير قد أعد لتخليص سابور أنواعا من المكايد[1] رتبها وأسسها عندما قدم على المطران .

وكان يقال : من ظن من الملوك أن لفطنته فضيلة على فطنة وزيره فقد غلط، وإن أضاف إلى هذا الغلط مخالفة الوزير لم يفلح ، وإنما كانت فطن الوزراء أثقب من فطن الملوك ؛ لأن الملوك يتفقهون أبدا فى سياسة من دونهم من الرعايا لا غير، والوزراء يتفقهون فى سياسة الملوك وسياسة الرعايا ، فهم أشبه شىء بالجوارح التى تصيد وتفترس ويصيدها أيضًا جوارح أشد منها ، فهى أعرف الجوارح بمكايد الاحتراس ومكايد الاكتساب .

وكان يقال : أحسن الوزراء حالا من أعد لكل أمر يجوز وقوعه ويمكن كونه عدةً ، فإذا وقع الأمر قابله بما كان أعده له ، وأسوأ الوزراء حالا من توكل على لطف فطنته وقوة حيلته ودربته وممارسته ، فترك الإعداد للأمور قبل نزولها ثقة بنفسه ، وإنما هو فى ذلك بمنزلة من ترك تزوير القول وإعداده وترويته توكلا على فصاحة لسانه وقوة بديهته وحسن ارتجاله ؛ فيوشك أن يستولى عليه العى والحصر[2] فى بعض مقاماته ، وبمنزلة من ترك حمل السلاح توكلا على قوة بدنه وشجاعة قلبه ، فيوشك أن يظفر به عدوه فى بعض المواطن .

قيل : وكان من المكايد التى أعدها وزير سابور أنه امتنع من مواكلة المطران، وزعم أنه لا يريد أن يخلط بالطعام الذى زوده البطرك طعاما غيره ؛ لما يرجو من بركته وبركة الاغتذاء به ، فكان إذا حضر طعام المطران أخرج هو من ذلك الزاد فانفرد بالأكل منه ، فلم يزل قيصر سائرا بجنوده حتى بلغ أرض فارس ، فأكثر فيها القتل والسبى ، وتغوير[3] المياه ، وقطع الشجر ، وإخراب القرى والحصون، وهو مع ذلك يواصل السير مبادرا ليستولى على

---

(١) المكايد ، مفردها مكيده : وهو المكر والحيلة .

(٢) أى العجز عن الكلام .

(٣) أى إذهاب وتضييع الماء فى الأرض .

ملك سابور ، ويباغت[1] من بها من رؤساء الفرس قبل أن يملكوا عليهم رجلا ، ولم يكن للفرس هَمٌّ إلا الفرار بين يديه والاعتصام منه بالمعاقل ، فلم يزل قيصر على ذلك حتى بلغ مدينة سابور وقرارة ملكه وهى المسماة جنديسابور[2] فأحاط بها جنوده ، ونصب عليها المجانيق[3] ، ولم يكن عند من بها من عظماء الفرس حيلة فى دفعه بأكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها ، وكل هذا قد علمه سابور على التفصيل مما يعلمه إياه وزيره ويدسه فى أحاديثه من الإشارات والرموز والكنايات ، وكان سابور لم تسمع منه كلمة منذ سجنه قيصر فى تلك الصورة .

فلما عرف سابور أن قيصر قد ثقلت وطأته على أهل جندى سابور وقد ثلم الأسوار[4] بالمجانيق ، وأشرف على افتتاح المدينة ؛ عيل صبره[5] ، وساء ظنه بوزيره وجزع ويئس من النجاة مما هو فيه .

فلما جاء الموكل بطعامه قال له : إن هذه الجامعة قد نالت منِّى منالا عظيما وضعفت منها ، وسمعها وزير سابور ؛ فعلم أن سابور قد جزع وساء ظنه وفطن لما قصده سابور .

فلما جن الليل وجلس لمسامرة المطران قال له : لقد ذكرت الليلة حديثا عجيبا ما ذكرته منذ كذا وكذا سنة ، ولوددت أنى كنت حدثته للبطرك قبل سفرى عنه فقال له المطران : إنى راغب إليك أن تحدثنى به الليلة أيها الحكيم الراهب .

فقال الوزير : نعم وكرامة ، ثم اندفع يحدثه رافعا صوته ليسمع سابور

فقال : إنه كان عندنا بجليقية[6] فتى وفتاة فى نهاية الحسن والظرف ، اسم الفتى ما معناه : عين أهله ، واسم الفتاة ما معناه : سيدة النار ، وكانا زوجين

---

(١) يفاجىء .

(٢) جند يسابور : مدينة إيرانية فى إقليم خورستان بناءها سابور بن أردشير فنسبت إليه . وهى مدينة خصبة واسعة الخير بها النخل والزروع والمياه . معجم البلدان (٣٢٧٢) .

(٣) المجانيق ، مفردها منجنيق : وهى آلة حربية ترمى بها القذائف .

(٤) أى هلك وهدم .

(٥) أى نفذ صبره .

(٦) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس فى أقصاه من جهة الغرب ، معجم البلدان (٣٢٠٥) .

مؤتلفين متحابين لا يبتغى أحدهما بالآخر بدلاً ، وإنّ "عين أهله" جلس يوما مع أصحاب له يتحادثون فتذاكروا النساء إلى أن وصف أحدهم امرأة بالجمال البارع والظرف الرائع اسمها ما معناه : سيدة الذهب فوقع بقلب عين أهله ميل إليها، فسأل الواصف لها عن منزلها فذكر له أنها بقرية غير قرية عين أهله ، ففكر عين أهله فى أمرها وخامره حبها وطمحت نفسه إليها طموحا شديداً .

وكان يقال : العقل كالبعل ، والنفس كالزوجة له ، والجسم كالبيت لهما، فإذا كان سلطان العقل على النفس مبسوطا اشتغلت النفس بمصالح الجسم كاشتغال المرأة التى قهرها بعلها بمصالح نفسها وبيتها وولدها فصلحت الجملة ، وإذا كان السلطان للنفس على العقل كان سعى النفس فاسدا ونزاعاتها مذمومة كفعل المرأة التى قهرت بعلها .

قيل : فانطلق "عين أهله" إلى القرية التى تسكن بها سيدة الذهب ، وطلب منزلها حتى عرفه ، ولم يزل يتردد إليه حتى رآها فرأى منظرا عجيبا ولم تكن أحسن من امرأته . ولكنه كان يقال : من ضرورة النفس أن تحن إلى التنقل فى الأحوال إذا كانت نقلت بالتركيب إلى عالم الكون ، ثم تنتقل بالتفريق إلى عالم الفساد ، وما افتتح أمره واختتم بالنقلة ، فأليق الأحوال بتوسطه للنقلة ، ونازعت عين أهله نفسه إلى الاستكثار من رؤية سيدة الذهب فلزم المعاودة إلى منزلها والتمتع بتأملها حتى فطن له بعلها ، وكان جليقيا غليظ الطبع ، قاسى القلب شديد البطش يسمى : الذئب ، فرصد عين أهله حتى مر به ، فلما رآه وثب عليه فقتل فرسه ، ومزق ثيابه ، وتعتعه[1] وعنف عليه ، واستعان بأصحاب له ، فاحتملوا عين أهله وأدخلوه إلى دار الذئب وربطوه إلى سارية فى بيت من بيوتها ، ووكل به الذئب عجوزا قطعاء اليد ، جدعاء الأنف[2] ، عوراء العين ، شوهاء الحالة ، فلما جن الليل أوقدت تلك العجوز نارا بالقرب من عين أهله ، وجلست تصطلى[3] ، فتذكر عين أهله ما كان فيه من السلامة والرفاهية والعز ، فزفر

---

(١) ضربه بعنف .

(٢) أى مقطوعة الأنف .

(٣) تستدفىء .

زفرة عالية ، فأقبلت عليه العجوز وقالت له : أيها الفتى : ما ذنبك الذى أوردك مورد الذلة والشدة ؟ .

فقال عين أهله : ما علمت أن لى ذنبا . فقالت العجوز : هكذا قال الفرس للخنزير فلم يصدقه الخنزير ، ثم باحثه عن أمره ؛ فظهر ما خفى منه وعلم صدق ظن الخنزير ، فقال عين أهله للعجوز : إن رأيت أن تحدثينى بذلك وكيف كان فإنك تحسنين إلى به .

فقالت العجوز : ذكروا أن فرسا كان لرجل من الشجعان فكان يكرمه ويحبه ويحسن القيام عليه ، ويعده لمهماته ولا يصبر عنه ساعة ، وكان يخرج له فى الغدوات إلى مرج[1] فيزيل عنه سرجه ولجامه ويطيل رسنه[2] ، فيتمرغ ويرعى حتى ترتفع الشمس فيرده ، وأنه خرج به يوماً إلى المرج ونزل عنه ، فلما استقرت قدمه على الأرض نفر الفرس وجمح ومر يعدو بسرجه ولجامه فطلبه الفارس يومه كله فأعجزه ، وغاب عن عينه عند غروب الشمس ، فرجع الفارس إلى أهله وقد يئس من الفرس ، ولما انقطع الطلب عن الفرس وأظلم عليه الليل جاع ، فرام[3] أن يرعى ، فمنعه اللجام ، ورام أن يتمرغ ، فمنعه السرج ، ورام أن يستقر على أحد جنبيه ، فمنعه من ذلك الركابان ، فبات بشر ليلة . ولما أصبح ذهب يبتغى فرجا مما هو فيه فاعترضه نهر فدخله ليقطعه إلى ضفته الأخرى فإذا هو بعيد القعر فسبح فيه ، وكان حزامه ولبيه[4] من جلد لم يبالغ فى دبغه ، فلما خرج من النهر أصابت الشمس الحزام واللبب فيبسا ، واشتد عليه ، فورم لبابه ومحزمه واشتد الضرر عليه إلى ما به من الجوع ، فلبث بذلك أياما إلى أن ضعف عن المشى ، فقام فمر به خنزير فهم بقتله ، ثم عطّفه عليه ما رأى به من الضعف ، فسأله عن حاله فأخبره بما هو فيه من إضرار اللجام واللبب والحزام به ، وسأله أن يصطنع عنده معروفا ويخلصه

---

(١) الأرض الواسعة كثيرة العشب .

(٢) حبله وزمامه .

(٣) أراد .

(٤) اللبب : ما يشد فى صدر الدابة .

مما ابتلى به ، فسأله الخنزير عن الذنب الذى استحق به تلك العقوبة ، فزعم الفرس أن لا ذنب له .

فقال له الخنزير : كلا ؛ بل أنت كاذب فى زعمك ، أو جاهل بجرمك ، فإن كنت يا فرس كاذبا فما ينبغى لى أن أنفس عنك خناقا ، ولا أن اصطنع عندك معروفا ولا أن أتخذك وليا ، ولا أن ألتمس عندك شكرا ، أو أطلب فيك أجرا .

وأنَّه كان يقال : إذا رأيت نفس الكذاب قد تشبث بها عالم الفساد فكِلها إليه ، فإنه اللائق بها لفساد تركيبها ، والدليل على فساد تركيب نفس الكذاب أنها مضرة به ، معرضة عن الحقيقة فى الحوادث ، ونزاعة إلى العدم المحض[1] ، فتتصور العدم وجودا ، والباطل حقا وتصور ذلك فى نفس المغتر بها إلى الراكن إلى قولها .

وكان يقال : احذر مقارنة ذوى الطباع المرذولة[2] ؛ كيلا تسرق طباعك من طباعهم وأنت لا تشعر .

وكان يقال : أصعب ما يعانيه الإنسان ممارسة صاحب لا تتحصل منه حقيقة.

وكان يقال : لا تطمع فى استصلاح الرذل والحصول على مضافاته ، فإن طباعه أصدق إليه منك فلن يترك طباعه لك .

ثم قال الخنزير : وإن كنت يا فرس جاهلا بجرمك الذى استوجبت به هذه العقوبة فجهلك بذنبك أعظم منه ، فمن جهل ذنوبه أصر عليها ولم يُرج فلاحه .

وكان يقال : احذر الجاهل فإنه يجنى على نفسه ، ولست أحب إليه منها .

وكان يقال : ما شىء أشبه بالكذب من الجهل ، وذلك لأن الكذاب يتناسى الصورة والقضية المحسوستين ، ويتخيل الكذب الذى هو ضدهما حتى ينطبع ذلك فى عقله ويترك الصواب عمدا إلى غيره ، والجاهل يرى الأشياء على خلاف ما هى عليه ، فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا ، وإنما الفرق بين الجاهل والكاذب : أن الكاذب يأتى ما يعلم خطأه فيه ، والجاهل لا يعلم ذلك ،

---

(١) الفناء .

(٢) الخسيسة والدنيئة .

فهو على نفسه وعلى غيره أشد جناية من الكاذب .

فقال الفرس للخنزير : ينبغى لك ألا تزهد فى اصطناع المعروف ، فقال الخنزير: إنى لست بزاهد فى ذلك ، ولكنه كان يقال : العاقل يتخير لمعروفه كما يتخير الباذر لحبوبه التى يبذر ما ذكا[1] من الأرض ، فحدثنى يا فرس عن ابتداء أمرك فيما نزل بك وعن حالك قبل ذلك لأعلم من أين دهيت ، فحدثه الفرس بجميع أمره وكيف كان عند فارسه ، وكيف فارقه وما لقى فى طريقه إلى حين اجتماعه بالخنزير .

فقال له الخنزير : قد ظهر لى الآن أنك جاهل بجرمك وأن لك ذنوباً ستة ، أولها : خذلانك فارسك الذى أحسن إليك وأعدك للمهمات ، والثانى : كفرك لإحسانه ، والثالث : إضرارك به فى طلبك ، والرابع : تعديك على ما ليس لك وهو السرج واللجام والخامس : إساءتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذى لست له أهلا ولا لك عليه مقدرة، والسادس : إصرارك على ذنبك وتماديك فى غوايتك، فقد كنت متمكنا من العود إلى فارسك ، والاستقالة من فارط جهلك قبل أن يوهنك اللجام بالجوع واللبب والحزام بالضنك[2] .

فقال الفرس للخنزير : أما إذ عرفتنى ذنوبى وأيقظتنى لما كنت ذاهلا عنه ، محجوبا بحجاب الجهل ، فانطلق الآن ودعنى فإنى مستحق لأضعاف ما أنا فيه.

فقال الخنزير : أما إذ عرفت وفطنت لهذا الغدر ، ولمت نفسك ، ووبختها واخترت لنفسك العقوبة على جهلها ، واستعملت الحكمة التى وعيتها ؛ فإنك حقيق بأن ينفس عنك ، وإنه قيل : إن الأب لوقا[3] كتب على باب بيته : إنه لن ينتفع بحكمتنا إلا من عرف نفسه ووقف عند قدرها ، فمن كان بهذه الصفة ؛ فليدخل وإلا فليرجع حتى يكون بهذه الصفة .

ثم إنّ الخنزير قطع عنان اللجام فسقط وقطع الحزام فنفس عن الفرس .

---

(١) أى ما جاد وحسن من الأرض .

(٢) الضيق والضعف .

(٣) لوقا : قديس إنجيلى . رفيق بولس الرسول فى أسفاره . كان طبيباً كتب إنجيله نحو ٦٧م. وهذا مما يدعيه رهبان وأنصار المسيحية .

قال : ولما سمع عين أهله ما خاطبته به العجوز ، وفهم ما ضربت له من الأمثال أقبل على العجوز وقال لها : قد صدقت فيما نطقت وضربت لى مثلا كشف لى عن جلية أمرى[1] ، وأفدتنى حِكَما لا كفاء لها ، وأدبتنى فتأدبت ، ووعظتنى فاتعظت ، ثم حدثها حديثه ، ورغب إليها فى أن تمن عليه بالاصطناع وتطلقه كما فعل الخنزير بالفرس .

فقالت له العجوز : إنك غر[2] لا بصيرة لك بالأمور ، وإن الذى سألتنى لا يمكن فعله الآن ولعلى أن أجد لك فرجاً ومخرجاً مما أنت فيه ، فعليك بالصبر ، وأمسكت العجوز عن مخاطبته .

قال : فلما انتهى الوزير فى حديثه إلى هذه الغاية ، أقبل على المطران وقال له: إنى أحس فى نفسى فتوراً ، وفى رأسى صداعاً ولا يمكن الليلة إتمام الحديث ولعلى أن أكون فى الليلة القابلة نشيطاً إلى ذلك قديراً عليه ، فأكمل مسرتك بإكماله ، ونهض إلى مضجعه .

فجعل سابور يتصفح[3] حديث وزيره ، ويتأمل الأمثال التى وصفه بها ففهم أن الوزير كنى عنه بعين أهله ؛ لأنه ملك فارس . وكنى عن مملكته وإقليم بابل بسيدة النار ؛ لأن رعيته يعبدون النار ، وكنى عن بلاد الروم بسيدة الذهب ، وكنى عن طموح نفس سابور إلى رؤية مملكة الروم بطموح نفس عين أهله إلى سيدة الذهب ، وكنى عن أخذ قيصر له بقبضة الذئب على عين أهله ، وقصد بما ضربه له من الأمثال الحكمية ؛ تأديبه على شرهه وتغريره بنفسه ومخالفة أصحابه ، وكنى عن نفسه وحاله وعجزه وحزنه وذله فى خدمة المطران وطلبه مرضاته وتملقه بالعجوز القطعاء الجدعاء العوراء المشوهة الخلق ، وعرفه أنه لا يمكنه تخليصه فى ذلك الوقت ، وأنه ساع فى خلاصه ، فسكنت نفس سابور لما فهم ذلك وعاودته ثقته بوزيره واستروح ريح الفرج ، ولبث بذلك ليلته ووعدها الليلة القابلة .

---

(١) أى حقيقة أمرى .

(٢) الغر : من لا خبرة له .

(٣) يتأمل ويتدبر .

فلما تعشى المطران وأخذ مقعد المسامرة قال لوزير سابور : أيها الراهب الحكيم أخبرني ما كان من أمر عين أهله وكيف كان عاقبة شدته ، وهل خلصته العجوز من وثاق الذئب أم لا ؟ ، فإن نفسي إلى علم ذلك متطلعة وأراك الليلة صالح الحال .

فقال الوزير : سمعاً لقولك وطاعة لأمرك ، ثم أقبل عليه يحدثه فقال : إن عين أهله أقام على حالته موثقا طول ليلته تلك ، فلما أصبح دخل عليه الذئب فتهدده بالقتل وزاده إلى وثاقه قيدا ثقيلا وخرج عنه ، فقطع عين أهله نهاره ذلك بالأماني، فلما جنه الليل قلق واستوحش وبكى وانتحب وجاءت العجوز فأضرمت نارا قريبا منه وجلست تصطلي .

ثم أقبلت على عين أهله فقالت له : تعز واصبر واذكر مصائب الناس فتأس بهم ولا تذهل عن النعمة العظمى في حفظ نفسك ، فقال لها عين أهله : لقد صدق القائل هان على الطليق ما لقى الأسير ، فقالت له العجوز : أيها الفتى ، إن حداثة السن قصرت بك عن إدراك كثير من الحقائق ، أفتسمع حديثا لك فيه سلوة؟ قال : نعم فأنعمي على به .

فقالت العجوز : ذكروا أن تاجراً مكثراً كان له ابن ليس له غيره ، وكان شديد المحبة له والشغف به فأتحفه بعض معارفه بغزال فرخ صغير ، فعلق به قلب الغلام ولد التاجر فكان لا يفارقه ، وجعل أهل الغلام على ذلك الغزال حَلْيا نفيسا، وارتبطوا له شاة ترضعه حتى اشتد الغزال وشدن نجم قرناه[1] ، قال الغلام لأهله : ما هذا الذى فى رأس الغزال ؟ قالوا: قرناه ، فأعجبه سوادهما وبريقهما ، فقيل للغلام : إنهما سيكبران ويطولان حتى يكون صفتهما كيت وكيت، فقال الغلام لأبيه : أحب أن أرى ظبيا له قرنان كبيران ، فأمر أبوه فصيد له ظبى ثنى السن[2] ، قد استكمل قوة ونموا ، فأعجب به الغلام وكرمه أهله وحلوه وآنسوه[3] فأنس ، وألف الغزال الظبى للمجانسة الطبيعية .

فقال الغزال للظبى : ما ظننت – قبل أن أراك – أن لى فى الأرض شكلا ،

---

(١) أى قوى واستغنى عن أمه .

(٢) أى نبتت أسنان مقدمة فمه دلالة على نموه .

(٣) استأنسوه .

ثم لما رأيتك وقع فى نفسى أن لى أشكالا سواك ، فقال له الظبى : نعم ، إن أشكالا لك كثيرة ، فقال له الغزال : أين هى ؟ فأخبره الظبى بتوحشها وانفرادها فى فلوات[1] الأرض فرارا من الناس ، وحدثه عن مراتعها ومواردها وازدواجها وتناسلها ، فارتاح الغزال لما سمع من الظبى ، وتمنى أن يراها فيكون معها ، فقال له الظبى : هذه أمنية لا خير لك فيها ، وأنت نشأت فى رفاهية العيش ، وأمنة لا تعرف غيرها ، ولو حصلت فيما تمنيت لندمت .

وإنه كان يقال : ثلاثة من لم ينزلها منزلتها ويرع لها حقها أسرعت مفارقته والتحول عن قربه ، وهى : الملوك ، والعلماء ، والنعم .

وكان يقال : الأمانى فى الشدة ارتياح ، وفى الرخاء جماح[2] ، فلا ينبغى أن يأذن العاقل لنفسه من الأمانى إلا فى المقدار الذى يؤنس الوحشة وينفس الكربة ، فإن استيلاء الأمانى على النفوس ؛ كتآمر السفلة الذين يعيدون الرؤوس أعجازا[3] والأعجاز رؤوساً ويسعون فى قلب الأعيان وتغيير صورة الصواب ، فقال الغزال للظبى : لابد لى من أشكالى ، فلما رأى الظبى أن الغزال غير منته وخاف عليه أن يقطع به قبل بلوغه ما تمناه ؛ لأنه غر لا يعرف التحرز من مكايد النفس لم يجد بدا من اتباعه والكون معه ليقضى حق حرمة ألفته إياه ، فرصدا حينا يمكن فيه الفرار وخرجا معا حتى لحقا بالصحراء . فلما عاينها الغزال فرح ومرح وذهب يعدو ولا يثنيه شىء ، حتى سقط فى أخدود ضيق قد قطعه السيل فلبث فيه وانتظر أن يأتيه الظبى ليخلصه فلم يأته فبقى هنالك .

وأما ولد التاجر ، فإنه أصبح وعدم الغزال والظبى وجزع لفقدهما وأشفق أبوه عليه ، فاستدعى كل من يعانى الصيد بذلك البلد فعرفهم القصة وكلفهم طلب الظبى والغزال ، ووعد من وجدهما وعدا مرغوبا فيه ، فانبثوا[4] فى سهل الأرض وحزنها[5] يطلبونهما ، وركب التاجر دابته ، وفرق أتباعه على أبواب

---

(١) الفلوات ، مفردها : فلاة وهى المساحة الواسعة من الأرض الفضاء .

(٢) انهزام وضعف .

(٣) الأعجاز ، مفردها : عجز وهو مؤخرة الشىء ، والمراد : قلب الأمور رأساً على عقب

(٤) الانبثاث : الانتشار والتفرق والمراد : جدوا فى طلبهم والبحث عنهم .

(٥) الحزن : ما غلظ من الأرض وصعب .

المدينة ينتظرون من يأتى من الصيادين ، وانطلق هو وعبدان من عبيده حتى أتوا الصحراء فرأى على بعد رجلا مكبا على شىء بين يديه فأسرع نحوه ، فإذا هو صياد قد أوثق ظبياً وهو يريد ذبحه ، فتأمله التاجر فإذا هو الظبى الذى يطلبه فتخلصه من يد الصياد وأمر عبيده ففتشاه ، فوجد معه الحلى الذى كان على الظبى ، فسأله : كيف ظفر بالظبى وأين وجده ؟ فقال : إنى بت فى الصحراء أتصيد فنصبت شركا وكمنت قريبا منه ، فلما أصبح جاء هذا الظبى ومعه غزال فمر الغزال يعدو ويمرح فى جهة غير جهة الشرك ، وجاء هذا الظبى حتى حصل فى الشرك فأخذته وقصدت به المدينة حياً لعلمى أنه إن رئى طولبت بما عليه من الزينة فرأيت أن أذبحه وأدخل به لحماً ، فهذا خبرى .

فقال له التاجر : لقد جنى عليك شُحك الخيبة والحرمان ، فماذا عليك لو أطلقته فذهب وحصلت أنت على حليه وزينته . ولقد صدق القائل : لا يدخل الشر مدخلا إلا أعقبه المحرمة ، ولا يدخل البخل مدخلا إلا أعقبه الحسرة ، ألا ترى أن من حمله البخل والشره على أكل اللقمة التى عافتها نفسه كان متعرضا للمحرمة بتهوع[1] ما أكله والحسرة عليه عند مفارقته .

ثم إن التاجر بعث بالظبى إلى ولده مع أحد عبديه وقال للصياد : ارجع معى فأرنى الجهة التى رأيت الغزال سعى نحوها ، فرجع به إلى تلك الجهة وجعل الصياد يفتش ويتشوف على المواضع المرتفعة ومشى التاجر على رِسْله[2] ، فسمع تربيب الغزال ـ وهو صوته ـ فصاح به التاجر ، فلما سمع الغزال صوته عرفه، فصوت واتبع التاجر الصوت حتى قام عليه وإذا هو فى أخدود[3] أى شق فى الأرض ـ منتشبا فيه[4] ، فأخذه ونادى الصياد فوهب له دراهم وصرفه ، ورجع التاجر بالغزال إلى ولده وكملت مسرة الغلام ، وجعل الغزال يتجنب الظبى إذا رآه ولا يألفه كما كان ، وإذا حصل معه فى موضع نفر منه أشد النفار، فتنغصت مسرة الغلام لذلك وجهد أهله بكل حيلة أن يجمعوا بين الغزال والظبى على حال ألفة وسكون ؛ فلم يقدروا على ذلك فبينما الغزال

---

(١) تقيىء من غير تكلف .

(٢) أى على مهلٍ ورفقٍ .

(٣) حفرة مستطيلة .

(٤) متعلقا .

يوما نائما فى بيت ، دخل عليه الظبى فعاتبه على نفاره منه وطول هجرته لـه ، فقال له الغزال : أنسيت غدرك بى أحوج ما أكون إلى عونك ؟ ، فقال له الظبى : إنى لم أغدر ولم أخن ولكن عدم رسوخك فى علم التجربة أوقعك فى تهمة البرىء ، وإنى لم أتأخر عن تخليصك مما حصلت فيه إلا مضطرا إلى التأخر عنك عاجزا عن المبادرة إليك ، وقص عليه قصته وأنه حصل فى شرك الصياد ، فعلم الغزال عذره وعاد إلى تآلفه .

قال : فلما سمع عين أهله حديث العجوز ، وفهم ما أرادت به من ذكر عجزها عن تخليصه أمسك عن خطابها .

قيل : فلما انتهى وزير سابور من حديثه إلى هذا الحد سكت ، فقال له المطران: أيها الحكيم الراهب : ما هذا السكوت ، لعلك تريد أن تؤخر إخبارى بما كان من عاقبة عين أهله ، وما لقى من الذئب ، وما صنعته معه العجوز .

فقال له الوزير : إنى لعازم على ذلك لفتور أجده فى أعضائى ، فقال له المطران : لا تفعل فإن ذلك يسوءنى ويشق على ، فاحمل لى على نفسك الليلة أيها الحكيم ، فإنى راغب فى تأنيسك ، معجب بأحاديثك ، فقال الوزير : أفعل ذلك طلبا لمرضاتك ، ولو علمت أيها المطران ما ادخرت لك من عجائب الأخبار وغرائب الأسمار لعجبت من ذلك أشد العجب ، ثم اندفع يحدثه ، فقال : إن عين أهله لما سمع حديث العجوز وفهم ما أرادته أمسك عنها وبات ليلته تلك بأسوأ حال ، ولما أصبح دخل عليه الذئب فنال منه ، وتعتعه وعنفه وتهدده بالقتل وزاده قيدا إلى قيده ، وعرفه أن لا ناصر له عليه ولا مخلص له من يده وخرج عنه ؛ فجعل يعلل نفسه نهاره ويمنيها الفرج ، فلما أقبل الليل استوحش واحتوشته الأفكار المريضة ، وانتظر أن تجلس إليه العجوز أو تحادثه فلم تفعل ، وجعلت العجوز تكثر الدخول إلى البيت الذى فيه عين أهله ولا تستقر فيه ؛ فساء ظن عين أهله وأيقن بالهلكة وما شك أن الذئب يقتله تلك الليلة ، فأقبل على البكاء حتى ذهب صدر من الليل ، ثم قال للعجوز : ما لك لم تؤنسينى هذه الليلة بحديثك ولا جلست إلى ؟ ، فجلست إليه وقالت له : أما كان لك فى رؤيتى قضاء جعاء مشوهة عوراء سيئة الحال ما يحملك على التأسى والتسلى وحمد الله وشكره على سلامة نفسك ومعافاتك من بلاء هو أعظم من بلائك حتى قلت : هان على الطليق ما لقى الأسير؟ ، ولو اعتبرت باطن حالى بما ظهر لك منها

لعلمت أن أسرى أشد من أسرك فاستمع إلى أحدثك حديثى .

اعلم أيها الفتى أنى كنت زوجة لبعض الفرسان ، وكان بى محسنا وبى رفيقا ولى محبا ، فكنت معه فى أرغد عيش ، وأهناه فلبثت بذلك مدة طويلة وولدت له أولادا ذكورا وإناثا ، فكبروا فى رفاهية ونعمة ؛ فغضب الملك على زوجى لأمر كان منه فقتله وقتل ذكور أولادى ، وباعنى أنا وبناتى مفترقات ، فاشترانى هذا الفارس الذى عدا عليك واحتملنى إلى هذه القرية ، وأساء إلى وكلفنى من العمل ما لا طاقة لى به ، وأكثر معاقبتى على غير ذنب لما طبع عليه من القسوة والفظاظة[1] ، فسألته مرارا أن يرفق بى ، واستعنت عليه بإخوانه ومن يكرم عليه لكى يخفف عنى أو يبيعنى ، فلم يزده السؤال إلا قسوة على وإضراراً بىّ ، فلبثت بذلك سبع سنين ، ثم فررت منه فتبعنى فأدركنى فجدع أنفى ، ثم عاود قسوته على وإضراره بى وعاودت مسألته والاستشفاع إليه وهو مقيم على سوء رأيه فى، فمكثت بذلك سبع سنين أخرى ، ثم فررت منه فظفر بى ففقأ عينى ، ثم عاود عنفى ، فمكثت سبع سنين أخرى ، ثم فررت منه فأدركنى فقطع يدى ، وقال لى: إنما بقى لى من أعضائك الذى أنتفع بها عينك ويدك ، فإن فررت بعد هذا قطعت رجليك معا وأبقيتك ، أنتفع بعينك فى الحراسة وبيدك فى العمل ، وأقسم على ذلك بغليظ الأيمان وعاود عنفى ومضرتى ، وقد عزمت على أن أخلصك الليلة وأقتل نفسى بيدى طلباً للراحة مما أنا فيه ، ولهذا رأيتنى أكثر الدخول إليك والخروج عنك ، و إنما ذلك لحيرتى وجزعى من الموت وقد طابت نفسى على الموت ، ثم إنها فتحت قيود عين أهله ، وقطعت وثاقه وتناولت سكيناً، فقال لها عين أهله : ما تصنعين به ؟ ، قالت أقتل نفسى ، فقال لها عين أهله : لئن تركتك تقتلين نفسك فقد اشتركت فى دمك ، وانتزع السكين من يدها وقال لها: اذهبى معى لكى ننجو معا أو نعطب معا ، فقالت له : إن كبر سنى وضعف حالى ليمنعانى من اتباعك والهرب معك ، فجزاها عين أهله خيراً بما صنعت واتخذها أما يسمع لها ويطيع ، فهذا ما بلغنى من ذلك ، فقال عين أهله : إن الليل متسع والموضع الذى نأمن فيه إذا وصلنا إليه قريب وبى قوة على حملك ، فقالت العجوز: أما إذا عزمت

---

(١) الفظ ، جمعها أفظاظ : وهو الغليظ السيء الخلق الخشن الكلام .

على هذا فإنى لا أحوجك إلى حملى مادامت بى مسكة[1]، وخرجا معا ، فلم ينقض الليل حتى بلغا إلى حيث أمنا .

فقال المطران : ما أعجب أحاديثك أيها الحكيم ، ولقد وددت أن لا أفارقك أبدا وإن سفرى هذا يطول لتطول متعتى بك ويعظم حظى من أنسك ، ولقد استعذبت مفارقة الأهل والوطن لقربك ، ونهض كل واحد منهما إلى مضجعه .

وبات سابور يتصفح حديث وزيره ويتأمل أمثاله ، ففهم أن الغزال مثل لسابور وأن الظبى مَثَلٌ للوزير ، وأن خروج الظبى مع الغزال إلى الصحراء وحصول الغزال على الأخدود مثل لصحبة سابور وزيره حتى حصل سابور فى حبس قيصر، وأن نفار الغزال عن الظبى مثل لسابور .

وظن سابور بوزيره لتأخره عن استنقاذه ، وعرف أن الوزير قد عزم على تخليصه والخروج به إلى المدينة ليلاً ، وأن المدينة قريبة منه وأنه يحمله إن عجز عن المشى ، فأيقن سابور بقرب الفرج .

ولما كانت الليلة القابلة تلطف وزير سابور حتى دخل الخيمة التى يطبخ فيها طعام المطران والموكلين بحفظ سابور على حال خلوة ، فألقى فى جميع الأطعمة مرقداً[2] قوى الفعل ، ولما حضر طعام المطران انفرد الوزير بأكل زاده على ما جرت به عادته ، فلم يكن إلا ساعة حتى استحوذ المرقد على جميعهم فانجدلوا[3] فى مواضعهم صرعى على مراصدهم ومضاجعهم ، وبادر الوزير ففتح باب الصورة عن سابور ، واستخرجه وأزال الجامعة من عنقه ويديه ، وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر ، وقصد به جندى سابور ، وهى مدينة ملكه ، فانتهيا معا إلى سورها ، فصرخ بهم الموكلون بحراسة السور فتقدم الوزير إليهم وأمرهم بخفض أصواتهم وعرفهم بنفسه ، وأعلمهم بسلامة ملكهم ، فابتدروا وأدخلوهما المدينة فقويت نفوس أهلها ، وأمرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح ، وعهد إليهم أن يأخذوا أهبتهم فإذا ضرب الروم

---

(١) ما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب .

(٢) دواء يرقد شاربه كالأفيون أى مخدر .

(٣) أى وقعوا على الأرض .

نواقيسهم[1] الضرب الأول؛ خرجوا من المدينة واقتربوا من عسكر الروم وقاموا على تعبئة وتأهب ، حتى إذا ضربت النواقيس الضرب الثانى حملوا بأجمعهم كل فرقة على من يليها فامتثلوا أمرهم ، وانتخبوا لسابور كتيبة عظيمة فيها أشجع أساورته وقام معهم فيما يلى الجهة التى فيها أخبية قيصر .

فلما ضربت النواقيس المرة الثانية حملوا من كل جهة ، وقصد سابور أخبية[2] قيصر ولم يكن الروم متأهبين ؛ لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم وأنهم قد بنوا أبواب مدينتهم ، فما شعروا حتى دهمتهم الفرس وأخذ سابور قيصر أسيراً ، وغنم جميع عسكره واحتوى على خزائنه ولم ينج من جنوده إلا الشريد[3] .

وعاد سابور إلى قرار ملكه ، فقسم الغنائم بين أهل عسكره ، وأفاض الصلات على جميع من فى مدينته بقدر أحوالهم ، وأحسن إلى حفظة ملكه وشرفهم وفوض جميع أمره إلى وزيره الذى تخلصه ، ثم أحضر قيصر فأكرمه ولاطفه وقال له : إنى مبق عليك كما أبقيتنى ، وغير مجازيك بتضييق محبسى ولكنى آخذتك بإصلاح جميع ما أفسدت من جميع ممالكى ، فتبنى ما هدمته، وتغرس مكان كل نخلة قطعتها من بلادى زيتونة ، وتطلق كل من فى مملكتك من أسارى الفرس ، فضمن له قيصر ذلك كله ووفى له به ، ولما انتهى فى الإصلاح إلى بناء ما انثلم[4] من سور مدينة جندى سابور . قال سابور لقيصر: إنما بنيته من تراب بلادك ، فأمر قيصر رعيته من الروم بحمل التراب من بلادهم إلى جندى سابور ، فرقع به ما انثلم من سورها ، ولما تم لسابور ما أراد من ذلك كله أحسن إليه وأطلقه إلى دار مملكته بعد أن قال له : خذ أهبتك واستعد عدتك ، فإنى غاز أرضك عما قريب .

---

(١) النواقيس ، مفردها ناقوس : وهو الجرس والصوت الذى يضرب فى الحرب .

(٢) الأخبية : مفرد خباء وهو كساء من الأبنية يكون من وبر وصوف وشعر والمراد مكان تجمع الجنود .

(٣) الذى فارق جمعهم وشملهم .

(٤) ما هدم وكسر . والمراد أنه أصلح مافى السور من خلل .

قال محمد عفا الله عنه : قد بلغت بهذه السلوانة الغاية التى يحتملها هذا الكتاب، فالحمد لله على ما يسر من ذلك .